

إثبات الاستواء على العرش واختلاف الفرق فيه

ثم رجع إلى الآيات فذكر قول الله تعالى: { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } هذه الآية من سورة طه آية الله تعالى الاستواء وأنه على العرش وجاء مثل هذه الآيات في سورة الأعراف: { إِنْ رَأَيْتُمْ اللَّهَ الْعَلِيِّ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } وفي سورة يونس: { إِنْ رَأَيْتُمْ اللَّهَ الْعَلِيِّ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } وكذلك في سورة الرعد وفي سورة الفرقان وفي سورة السجدة وفي سورة الحديد وردت في سبعة مواضع من القرآن إثبات صفة الاستواء على العرش ولذلك؛ لما ذكر ابن القيم رحمه الله في التوبة أدلة العلو جعلها أحد وعشرين نوعاً وبدأ بآيات الاستواء وذكر أنها سبعة: سبع آيات في محكم القرآن وكذلك اضطردت بلا مل ولو كانت بمعنى الالم في القرآن لآتت بها في موضع كي يحمل ال باقي عليها وهو ذو إمكان نقلت هذه الآية على المعتزلة والأشعرية ونحوهم؛ لأن فيها إثبات الاستواء على العرش وأوردوا على ذلك شبهات كثيرة عقلية؛ كما فعل الزمخشري في الكشاف، والرازي في تفسيره، وغيرهم، وأطالوا في الرد عليها، يعني إنكار صفة الاستواء على العرش، وأما أهل السنة فإنهم صفة لله تعالى ولكنهم توقفوا عن الكيفية يقول أبو الخطاب . في عقيدته: قالوا فترغم أن على العرش استوى قلت الصواب كذاك أخير سيدي قالوا فما معنى استوائه قل لنا فأجبتهم هذا سؤال المهتدي أي أننا نعتمد على خبر الله تعالى الصواب، إثبات ذلك كما أخبر الله تعالى عن نفسه، ثم إن أهل السنة فسروا الاستواء كما ذكر ذلك في تفاسيرهم فإن جبر رحمة الله كلما أتى على هذه الآية على آيات الاستواء { اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } أي ارتفع على العرش علا على العرش وذكر ابن القيم أنه فسرها باربعة تفاسير نظمها في التوبة في قوله: ولهم عبارات عليها أربع قد حررت للفراس الطعان وهي استقر وقد علا وكذلك ارتفع الذي ما فيه من تكبران وكذلك قد صعد الذي هو رابع وابو عبيدة صاحب الشبان يختار هذا القول في تفسيره أدري من الجهمي بالقرآن والأشعري يقول تفسير استوى بحقيقته استولى من البهتان فذكر أنهم فسروها باربعة تفاسير: أشهرها { اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } استقر على العرش، ثم منهم من قال استوى: ارتفع على العرش، وقال قيل { اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } قال استوى: صعد على العرش وكل ذلك يدل على صفة العلو، وهي أصرح آيات العلو، أما المعتزلة ونحوهم فسلطوا عليها التأويلات. فمنهم من قال استوى بمعنى: استولى؛ فزادوا فيها لاما، واستدلوا بيت مكذوب، منسوب إلى الأخطل أنه قال: قد استوى بشر على العراق من غير سيف أو دم مهراق والبيت لا أصل له، ولو قدر أنه ثابت عن الأخطل: فإنه لا يكون دليلا، ولذلك قال شيخ الإسلام في لاميته: فتح لمن نبد الكتاب وراءه وإذا استدل يقول قال الأخطل دليلكم قول الأخطل تترون الأدلة الصريحة وتدعيون إلى بيت لا أصل له ونسبوا إلى الأخطل فهذا تأويل لهم؛ استوى بمعنى: استولى، فزادوا فيها لاما، قد ذكرنا قول ابن القيم في قوله: وكذلك اضطردت بلا مل ولو كانت بمعنى الالم في القرآن لآتت بها في موضع كي يحمل ال باقي عليها وهو ذو إمكان يعني أنها اضطردت بلا مل ولو أنها مرادف الالم فيها؛ لاجتاء في موضع واحد من السبعة استولى فلما لم يأتي في موضع واحد؛ دل على أن إثبات هذه الالم من التحريف، ومن الزيادة في القرآن، ولذلك شبهها ابن القيم بالنون التي زادها اليهود؛ لما قيل لهم { وَقُولُوا حَقَّ } قالوا: حنطة؛ فزادوا نونا فشبّه الالمهم بهذه النون في التوبة يقول: نون اليهود ولم جهمي هما في وحى رب العرش زانندان فهذه الالم استولى له دليل عليها ثم ردها أيضا الأشعري أبو الحسن ذكرنا أنه كان له ثلاث حالات: حالة كان فيها معتزليا: ثم تاب وصار كلابيا؛ على طريقة ابن كلاب: ثم في آخر حياته تاب وصار حنطيا؛ على طريقة أهل السنة، فهو له كتاب اسمه المقالات؛ تكلم فيه على آيات الاستواء. ولما ذكر استوى قال: إنهم يقولون بمعنى: استولى قال: لو كان كما يقولون؛ لم يكن للعرش اختصاصا فإن المسئول على جميع المخلوقات؛ فهو مسئول عن السماوات، وعلى الأرض، وعلى المخلوقات كلها وعلى الحيوانات، وعلى الأماكُن المخلوقة كلها. ولا يجوز أن تقول: إن الله استوى على الجبال، إن الله استوى على الأرض، إن الله استوى على الأشجار؛ لو كان استوى بمعنى استولى؛ لجاز ذلك، فلما لم يجر، وخص الله تعالى الاستواء بالعرش؛ دل على أنه استواء خاص، يليق به، وأنه كما فسره أهل السنة. جاء بعضهم بتأويل آخر فقالوا العرش: هو الملك؛ وأنكروا أن يكون لله تعالى عرش مخلوق، قالوا { اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } استوى على الملك؛ على ملك المخلوقات، أنكروا أن يكون هناك عرش مخلوق، والأدلة على وجود العرش كثيرة ذكرها الله تعالى في القرآن وفي السنة مثل قوله تعالى: { رَبِّعِ الدَّرَجَاتِ دُو الْعَرْشِ } . العرش في اللغة: هو السبرير العظيم الذي يجلس عليه الملوك، قال الله تعالى عن الهدد: { وَهِيَ عَرْشٌ عَظِيمٌ } ثم قال سليمان { أَنْتُمْ تَأْتِينِي بَعْرَئِيهَا } ثم قال: { تَكُونُوا لَهَا عَرْشَهَا } { فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ } يعني سبرير عظيم كانت تجلس عليه وكذلك يوسف قال تعالى: { وَرَفَعَ نُورُهُ عَلَى الْعَرْشِ } أي: على ذلك السبرير الذي كان يجلس عليه، فالله تعالى خلق عرشا عظيما؛ جعله من كبر وأقدم مخلوقاته، وقد اختلف: هل العرش أول المخلوقات، أو العلم؟ ورد في حديث: { أول ما خلق الله القلم قال له أكتب } والصحيح أن العرش قبله يقول ابن القيم في التوبة: والناس مختلفون في القلم الذي كتب القضاء به من الرحمن هل كان قبل العرش أو هو بعده فولان عند أبي العلاء الهمداني والحق أن العرش قبل لأنه وقت الكتابة كان ذا أركان فالعرش مخلوق، وهو سبرير عظيم، ولا يعلم قدره إلا الله تعالى، وقد أخبر الله تعالى بأنه يحمل { الَّذِينَ يَخْلُقُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ } { وَيَخْلُقُ عَرْشَ رَبِّكَ قَوْفَهُمْ تَوَدِّعُ تَمَانِيَهُ } { رَبِّعِ الدَّرَجَاتِ دُو الْعَرْشِ } في آيات كثيرة وصفه الله بصفات { رَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ } { رَبِّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ } { دُو الْعَرْشِ الْمُتَجِدِّ } فله تعالى عرش اخصه بالاستواء عليه؛ فالاستواء من أدلة إثبات صفة العلو لله تعالى. من الآيات الدالة أيضا على العلو آيات السماء كقوله تعالى: { أَلَمْ نَكُنْ مِنْ بَنِي السَّمَاءِ } في سورة الملك مرتين وجاءت في الأحاديث كثيرة قال النبي صلى الله عليه وسلم: { ربنا الله الذي في السماء تقدس اسمك } أثبت أن الله في السماء { وقال للجارية ابن الة؟ قالت في السماء، قال: من أنا قالت: أنت رسول الله، قال: اعتنقها فإنها مؤمنة } هذا الحديث رواه مالك في موطنه، ورواه مسلم في صحيحه وغيرهما من الأئمة. قصة رجل كانت له أمة مملوكة وأمره عتي رقية مؤمنة قال: "هل أعتقها قال: انتني بها فاختبرها النبي صلى الله عليه وسلم هل هي مؤمنة أم لا فبدأ بسؤالها: { أين الله تعالى السماء -على القطر؟- جارية مملوكة لا تعلم شيئا، ولكن فطرت على هذه المعرفة- قال: من أنا؟ قالت: أنت رسول الله، قال: اعتنقها؛ فإنها مؤمنة } ؛ دليل صريح أقرها النبي صلى الله عليه وسلم وشهد لها بالإيمان، ومثل ذلك أيضا الحديث الذي فيه: { أنه صلى الله عليه وسلم قال: الأمانوني وأنا أمين من في السماء يأتي خبر السماء صباحا ومساء } أمين الله الذي في السماء. وقال صلى الله عليه وسلم: { ارحموا من في الأرض برحمتكم من في السماء } يعني برحمتكم لله أدلة واضحة في إثبات أن الله تعالى في السماء كذلك هذا الحديث عن حصين وحصين والد عمران بن حصين { جاء به أنه إلى النبي صلى الله عليه وسلم وكان شيخا كبيرا فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: كم إليها بعيد؟ كم لك بين الألهة بعيدها فقال: سبعة؛ ستة في الأرض وواحد في السماء } يعني: أنه بعيد ستة أوصام في الأرض وأنه مع ذلك بعيد الله؛ وذلك لأنه يعتقد أن هذه السنة أنها تقربه إلى الله كما في قولهم: { مَا تَعُدُّهُمْ إِلَّا لِيُعَزَّزُونَا إِلَى اللَّهِ لُرُقَى } اعترف بأن واحدا في السماء؛ أقره النبي صلى الله عليه وسلم على أن الله في السماء. في رواية أنه قال له: { من لرعبتك ورهبتك؟ } من الذي تدعوه إذا كنت راغبا ورأها أي خائفا أوراها فقال { الذي في السماء } هو الذي أرجوه عند الرهبة أي عند الخوف وعند الرغبة أي الرجا فقال له: { أتراك السنة التي في الأرض واعبد الذي في السماء } يعني اشهد أنه هو الإله واشهد أنه هو الرب، وأنا أعلمك لدعوته؛ أسلم بعد ذلك؛ علمه النبي صلى الله عليه وسلم قوله: { اللهم الهمني رشدي، وفتني شر نفسي، أقره على قوله: أن الذي يدعوه لرعبته ورهبته الذي في السماء. كذلك ذكر أنه نقل من علامات النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في الكتب المتقدمة أنهم يسجدون بالأرض بزعمون: أن إلههم في السماء يعني يسجدون في الأرض؟ على الأرض، وإلههم الذي يعبدونه في السماء؛ أي فوقهم، وروى أبو داود في سنته حديثا يسمى حديث الأوعال وفيه: { أن ما بين كل سماء إلى سماء مسيرة كذا وكذا -مسيرة خمسمائة سنة في بعض الروايات- ثم قال: وفوق ذلك ثمانية أوعال ما بين أطلاقهم وركبهم كما بين سماء إلى سماء، والعرش فوق ذلك، والله تعالى فوق العرش } هذا حديث مشهور بحديث الأوعال أثبت فيه الفوقية، والله فوق العرش، هذا الحديث مروى في السنن مرفوع رواه ابن خزيمة في صحيحه في كتاب التوحيد له الكتاب المطبوع قد اشترط أنه لا يذكر فيه إلا الأحاديث الثابتة التي ليس في أسانيدھا سقط وليس فيها انقطاع؛ فهو حديث معتمد فيه إثبات الفوقية؛ أن الله فوق العرش. وردت الفوقية أيضا في القرآن في مواضع منها ما يحتمل التأويل ومنها ما لا يحتمل التأويل فمن ذلك قول الله تعالى: { وَهُوَ الْقَاهِرُ قَوْوٍ عِنْدَهِ } أثبت الفوقية ها هنا ففوقية الظهر كقول فرعون { وَإِنَّا قَوْفُهُمْ قَاهِرُونَ } ولكن وردت الفوقية في سورة النحل في قول الله تعالى في قوله: { تَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ } فهذه صريحة لا تحتمل التأويل في إثبات أن الله تعالى فوق عباده كما يشاء ثم تعرف بذلك أن الآيات التي فيها إثبات أن الله في السماء صريحة في إثبات الفوقية. وقد فسرها العلماء بتفسيرين الأول أن في السماء يعني في العلو فإن كل شيء سما يعني ارتفع فإنه يسمى سماء؛ كل ما ارتفع فإنه سماء هكذا كل شيء مرتفع ويسمى السقف سما قال تعالى: { فَلْيَمْدُدْ بِسَبْتِ إِلَى السَّمَاءِ } يعني إلى السقف وقال تعالى: { وَأَتَرَاتِنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا } من السماء يعني من السحاب لأنه سامي يعني مرتفع سما يعني ارتفع فيكون قوله: { أَلَمْ نَكُنْ مِنْ بَنِي السَّمَاءِ } أي أأمنتم من في العلو من في العلو من هو عال فوق عباده. والقول الثاني: أن "في" بمعني: على؛ { أَلَمْ نَكُنْ مِنْ بَنِي السَّمَاءِ } أي: من على السماء، وليست للطرفية؛ في السماء يعني: بل "في" تأتي بمعنى "على" كما قال تعالى: { فَيَسْجُدْوا فِي الْأَرْضِ } أي: على الأرض، وقال عن فرعون { وَلَا تَعْلَمُكُمْ فِي جُدُوعِ النَّحْلِ } أي على جذوع النحل ليس في جوفها فعرف بذلك أن هذه الآيات دالة على إثبات هذه الصفة لله تعالى. ثم ذكر يقول: هذا وما أشبهه مما أجمع السلف رحمهم الله على نقله يعني هذه النصوص وعلى تقبله، ولم يتعرضوا لرده، ولا لتأويله؛ ما رواه شيئا من ذلك، ولا تأويله أي: حرقوه ولا شيهوه ولا ملئوه؛ بل قبلوا ذلك، واعتقدوا ما دل عليه. ذكر بعد ذلك أن الإمام مالك بن أنس رحمه الله سئل عن آية الاستواء؛ دخل عليه رجل فقال: يا أبا عبد الله أرايت قول الله تعالى: { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } كيف استوى؟ فأطرق مالك رحمه الله حتى علاه الرجة يعني: العرق؛ ثم رفع رأسه؛ فقال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، ولا أراك إلا مبتدع، ثم أمر به فأخرج وطرده؛ وذلك لأنه تكلف في هذا السؤال. وهذا الجواب مروى أيضا عن شيخه ربيعة بن أبي عبد الرحمن من مشاهير علماء المدينة أنه سئل فقال: الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب، ومن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم، وروى أيضا عن أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها نحو هذا وروى أيضا عنها مرفوعا والصحيح أنه لا يصح مرفوعا أنه روى عن أم سلمة من قولها وروى عن مالك وروى عن شيخه ربيعة وهذا هو قول أهل السنة: أن الاستواء معلوم غير مجهول يعرفه العرب بلغتهم ويفهمونه ويترحمونه من لغة إلى أخرى كما فسروه باستقر واستوى يعني ارتفع، وعلا، وصعد، فهو لفظة معلومة دلالتها ظاهرة. ذكر بعض العلماء أن كلمة "استوى" إذا كانت لازمة غير مفرودة بحرف فإن معناها التمام؛ قال تعالى: { وَلَمَّا بَلَغَ أَسَدَهُ وَاسْتَوَى } يعني: كمل وتم أي شبابه وقوته؛ فهانها استوى بمعنى كمل وتأتي بمعنى "إلى" كقوله تعالى: { ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ } فهي ها هنا بمعنى قصد إلى السماء أي خلقها وتأتي استوى بمعني: علا وارتفع؛ دليل ذلك قوله تعالى: { وَعِيْنَ الْمَاءِ قَوْصِي الْأَمْرِ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ } يعني استوى السفينة على الجودي يعني على الجبل استوت بمعنى استقرت مرتفعة على الجودي. وقوله تعالى: { لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِمْ ثُمَّ تَكُونُوا يُعَمِّمَةً رَبِّكُمْ } أي لتركبوا على ظهورها أي ترتفعوا على ظهورها؛ فالاستواء بمعنى العلو، وقوله تعالى: { قَاسِمْخُلُقٌ قَاسِشْتَوَى عَلَى سَوْفٍ } يعني ارتفع السنبل على سوفة على قصبه فالاستواء على سوفة بمعنى مرتفع عليها، ومنه قولهم: استوى على الجبل؛ يعني ارتفع عليه؛ فهذا معنى قول مالك الاستواء غير مجهول؛ أي أنه معروف عند العرب وأنه يفسر، ولا خلاف فيه، ولا حاجة إلى التكلف فيه؛ فهو كلام واضح؛ يفسر، ويترجم، ويعرفه الصغير والكبير؛ الذي عرف هذه اللغة، والكيف غير مجهول. الكيفية الاستواء لها كيفية، كيفية الاستواء هي المجهول التي...